جامــعة واســط
مجلـــــة كليـــــة التربيـــة

العـدد التاسع والثلاثون
الجزء الثاني / أيار / ٢٠٢٠

سورة التّكوير ـ مقاربة حجاجية

أ.م.د . عمار نعمة نغيمش
جامعة القادسية / كلية التربية

الخلاصة :

يعرض هذا البحث نظرية الحجاج على سورة التّكوير التي يتميز بمستويات إقناعية هدفها إلقاء الحجة على المشركين الذين عارضوا الرسول (ص) ، والوحي ، لذلك يجد القارئ أن ثمة حججا متدرجة جاءت في بداية النص ابتداء بأقوى حجة فالأقل ، يزاد على أن المشهد الآخر من السورة يتضمن مجموعة من العوامل الحجاجية التي تجعل القارئ يلتفت إلى الحوار الذي عرضه النص القرآني لإقناع المقابل.

Sura of Al-Takwir
Argument study

Ass. Pro. Dr. Ammar Ne'ma Nghimsh
userequ.edu.iq

Abstract

This research examines modern theory and applies it to a Quranic script that is characterized by abysmal levels that aim at presenting the argument to the polytheists who opposed the Prophet (pbh) and the revelation.

It is added that the Sura was divided into three scenes, and the latter includes a set of authentic factors that make the reader pay attention to the dialogue presented by the Qur'anic text to convince the interviewer .

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد فقد عرفت السور المكية ، ولاسيما ما نزل في بداية الدعوة الإسلامية بمستويات لغوية ونحوية تغري المختص في الدرس اللغوي الخوض في دراسة هذه السور، ومنها هذه السورة ، والمعروف عنها أنها احتوت مستويات إقناعية تستوجب الدراسة ، لذلك اخترتها عنواناً لبحثي ، فعنون بحثي بـ (سورة التّكوير مقاربة حجاجية).

قسم البحث على مدخل وأربعة مباحث ، وقد درست في المدخل المخاطب في الدراسات اللغوية ، أما المبحث الأول فقد تناولت فيه الانتقاء المعجمي، على حين درست في المبحث الثاني العوامل الحجاجية ، ومن ثم أخذت المتتاليات والسلم الحجاجي في المبحث الثالث، أعقبتها بحصيلة للبحث ، ومن بعدها جاءت قائمة المصادر والمراجع ، ولا يخفى على المختصين أن الدرس الحجاجي فيه أقسام كثيرة ، فاقتصرت فيه على المتلقي ، فجاءت الخطة بهذا الشكل.

مدخل : المخاطب في الدّراسات اللّغوية

تعد اللغة وسيلة اجتماعية ، فهي محور تفاعل بين المجتمعات سواء أكانت مسموعة أو مكتوبة، وبها يتفاهم الإنسان.

وقد نظر الباحثون قديما وحديثا إلى أن الهدف منها هو تبليغ المعاني والأفكار، فهي تؤدي دورا مهما لإقامة التفاهم ، فبوساطتها يؤولون وضعا ما، ويتفاوضون عليها بهدف الوصول الى توافق يفضي إلى تنسيق المصالح المشتركة بينهم.(١)

وتقوم العملية الإبلاغية على ثلاثة محاور ، وهي المتكلم والرسالة ، والمخاطب ، فالتواصل يكون بمتكلم يؤلف رسالة والمخاطب هو الذي يحلل هذه الرسالة ، لذلك لابد أن تكون الرسالة مفهومة عند المخاطب ، ومن هنا عني دارسو اللغة على اختلاف وجهاتهم ، وتخصصاتهم بالمخاطب ، لأنه واحد من أهم أطراف العملية التواصلية ، ووصول الأفكار الملقاة اليه واضحة هي الغاية التي يسعى إليها الناطق باللغة.(٢)

وقد بدأ هذا الاهتمام منذ القدم ، ولاسيما ما ذكره أرسطو الذي قسم الحجج ، والبراهين على الجاهزة وغير الجاهزة.

اما الثانية فقسمها على روافد ثلاثة ، وهي : حجج المرسل ، والمتلقي ، والخطاب نفسه.

ويذكر أنّ حجج المرسل ، والمتلقي لهما دور مهم في الخطاب الشفوي يفوق الدور الذي يؤديانه في الخطاب الكتابي.

وتكمن حجج المتلقي في نوازعه ، وميوله ، وأبعاده النفسية وغيرها ، ولذلك قيل إنّ الباتوس تلك العواطف التي يحركها الخطيب في جمهوره ، ويوجهها الوجهة التي تخدم قضيته والتي يستطيع منها أن يؤثر في أحكامهم ، وما يحملونه عن تلك القضية ، ومعرفة الخطيب بهذه الانفعالات ، وطرائق استدلالها ، ووجوه تحريكها بيسر له فعل الاقناع.(٣)

ذلك أنّ القدرة على الاقناع تقتضي المعرفة بما يمكن أن يحرك الذات التي تتوجه اليها بالخطاب.

أما المدونة العربية فكان الكلام فيها على المخاطب كثيرا ابتداء بأول كتاب ، فقد أولى سيبويه اهتماما خاصا بالمخاطب ، والمتصفح كتابه يجد إشارات واضحة عن ذلك.

من ذلك ما ذكره عن النداء ، والاختصاص.(٤)

ومنه ما ذكره الجاحظ الذي ذكر أنّ على المتكلم أن يعرف اقدار المعاني، وأن يوازي بينها وبين اقدار المستمعين(٥).

ومثله ما ذكره ابن رشيق عن معرفة أغراض المخاطب ليدخل إليه من بابه ويداخله ، وهو صناعة الشعر ، ومغزاه ، الذي تتقارب به الناس(٦) ، وغيرها من الأمثلة في التراث العربي.

والمتتبع للدراسات اللغوية الحديثة يجد اهتمام اللغويين بالمخاطب ابتداء بما ذكره دي سو سير الذي تقوم نظريته على وجود شخصين اثنين ، وهما الباث والمتلقي.(٧)

وقد درس جاكوبسن الظاهرة اللغوية ، فدرس عناصرها الستة ، فالتواصل عنده لا يمكن إلا بتوافر مجموعة من العناصر ومنها المرسل والمرسل إليه ،وهو الذي يستقبل تلك المعلومات ، وينبغي برأيه أن يكون مثاليا مستوعبا مضمون الرسالة.(٨)

وبعدها جاءت النظرية السياقية التي ارتبطت بفيرث ، إذ عالجت هذه النظرية الظروف اللغوية التي تحدد المعنى ، إذ أكد الأخير على الوظيفة الاجتماعية ، ولاسيما ما عرضه في سياق الحال من شخصية المتكلم ، والسامع ، والعوامل والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة.(٩)

وقد وسع كل من بيرلمان وتيتيكا الكلام على المستمع في النظرية الحجاجية، فقد صنفاه على ثلاثة محاور ، وهي المخاطب الكوني (الغالبية العظمى من الجمهور)، والمخاطب الخاص، والمخاطب المكون من الخطيب نفسه.(١٠)

ولا جدال في أنّ الخطاب القرآني استقطب اهتمام العرب فكان خطابه حجاجيا، إذ سعى إلى التأثير في الآخر لإقناعه واستمالته.

لذلك سلك في مخاطبة الكافرين متخذا من الأساليب اللغوية وسيلة لذلك، ومن ذلك طابع الترهيب الذي اتسمت به السور المكية، ومنها هذه السورة.

المبحث الأول

الانتقاء المعجمي

تتفاوت الوحدات اللغوية في درجة التعبير حجاجياً ، فمثلاً يعتمد التعبير بالعنصر (أ) بدلاً من العنصر (ب) تطبيقاً لقانون الأنفع حجاجياً ؛ فاختيار العنصر الأول تتحكم فيه غايات حجاجية ، لأنّ فيه عدولاً، فيقع التنبيه على المقاصد الحجاجية(١١) .

أي: لماذا ترك المتكلم العنصر (ب) واعتمد التعبير بالعنصر(أ) وما وجه النفع في ذلك، ويسمى عند المتقدمين بالتنكيت، وهو ان تقصد شيئا من دون اشياء لمعنى من المعاني ، وما وجه النفع في ذلك (١٢) .

وفي السورة الكريمة بعض المفردات جاءت لتؤدي وظيفة حجاجية ، لأنّها الحجة الأقوى ، ولأنّها متداولة ، والأنفع في توجيه الملفوظ ، وأول هذه الكلمات (كُورت) التي تعني جمع الضوء ولفه كما تلف العمامة(١٣) ، فاستعملت لفظة كورت بدلاً من كلمة اللف التي تعني الجمع أو ذهاب الضوء(١٤) ، فاللفظة الأولى أثارت مشاعر المتلقي بما فيها من ثقل لفظي ، فأراد الباري أن يوصل للمتلقي ذلك الترهيب ، فاستعمل لفظة جمعت المعاني كلها، ومنها الفعل (انكدرت) ومعناه التناثر والتهافت(١٥) .

فعدل التعبير عن المعنى السابق ليبين للقارئ سرعة سقوط النجوم ، ولذلك قيل في اللغة : انكدر ، أي: أسرع ، وانقضّ(١٦) ومنه الفعل (سُجرّت) ، وهو المملوء حطباً وناراً (١٧) ، فالتخويف جاء من دلالة اللفظة على الحطب والنار .

ومنه الفعل (سُعّرت) ، وقيل : إنّ معناه أوقدت وأضرمت نارها (١٨) ، على حين أنّ سُعرت أشد رهبة من الأخرى، وجاءت لفظة أزلفت بمعنى دنت ، وقربت(١٩)، وفي هذا المعنى أثر من التحبيب للمتقين من إثارة المشاعر عند المتلقي الذي يحب لقاء الجنة .

وفي السورة كلمات جاءت بهيأة الاستعارة ، وهي أهم وسيلة من وسائل الحجاج لما تحققه من نتائج تعمل على تقريب المعنى إلى ذهن القارئ ، لأنّها تهدف إلى إقناع المتلقي والتأثير فيه بالإيجاز الذي توفره ، وتحمله للانتقال من الحرفية إلى المعنى الاستعاريّ ، فتضيف شيئاً جديداً ، وهو تكثيف القول من بعض الصور المجازية كي تشكل قوة في المعنى والبيان(٢٠) .

والاستعارة هنا مكنية، وهي أكثر الأنواع وروداً في النص القرآني بلحاظ اختفاء المشبه به، ومجيء شيء من لوازمه.

لذلك يحتاج المتلقي فيها إلى أن يحرك ذهنه ليحقق الإقناع ، فيذكر فيها المشبه ، وإنما المقصود المشبه به ، إذ تدل بمثل شيء من لوازمه إلى المشبه بوجود قرينة[٢١] ليحقق الإقناع ، لأنه أقرب لنا ، وهو المشخص أو المجسد فهو أفضل من المغيب ، وقد وردت في ثلاثة مواضع قال تعالى : **(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ). [١١ ، ١٧ ،١٨]**

إنّ الاستعمال القرآني جعل السماء مثل الجلد الذي يكشط فجعلها محسوسة عند المتلقي، فأراد أن يقرب لنا المعنى بوساطة هذه الاستعارة ، ويقال : كشط الجلد عن الذبيحة ، أي : نحاه عنها ، وقيل : هو رفع شيء عن شيء قد غطّاه[٢٢]، ولعل معناه القلع عن شدة التصاق ، فالسماء تكشط كما تكشط الجلد عن الكبش، فصورة السماء المألوفة عند المتلقي هي الزرقاء الجميلة ، أما عند الكشط فستتغير الحالة ، فصورت هذه الكلمة دلالة الكشط.

وكذلك الليل ، فهو سكون ، فلابد أن أنزله منزلة المجسد بإعطائه لازماً من لوازم المجسد (عسعس)، فمجيؤه هنا نمط من أنماط الإقناع ، والإفهام (إنزال المجرد منزلة المجسد) .

وجاء هذا بلحاظ التكثيف (الخروج من الأصل إلى التكثيف) في اللفظة ، أي : أنها تهدف إلى إقناع المتلقي ، والتأثير فيه بما فيها من إيجاز ذلك الذي ينقل المعنى من الحرفية إلى المعنى الاستعاري .

إن استعمال الاستعارة المكنية أقوى ، وأبلغ ، وهدف الاستعارة هو التقريب الذهني المعقول إلى الحسي ، فمثلاً السماء جعلت مثل الجلد الذي يكشط ، فجعلت محسوسة ؛ إذ إن التعبير القرآني أراد أن يقرب المعنى بوساطة الاستعارة المكنية ، ولو رجعنا إلى الفعل (عسعس) ، لوجدنا أنه يطلق معجمياً على الدنو من الشيء ، لذلك يقال : عسعست السحابة ، أي : دنت من الأرض ليلاً ، وعسعس الليل : أقبل ، ودنا بظلامه من الأرض، وقيل هو : ظلمة الليل[٢٣] .

وقد تبين أن الأصل أن يطلق هذا اللفظ على الليل ، والدنو ، فالباري لما أسند الفعل (عسعس) أراد بذلك أن يقرب لنا المعنى بوساطة الاستعارة المكنية ، وقد اكتسبت الاستعارة حجاجيتها ؛ لأن هذه اللفظة لا تستعمل إلا في الليل ، فالليل لا يدنو أو يظلم ، فقربها من المحسوس ، فأسند (العسعسة) إلى الليل ، وأراد بذلك أن تقريب الذهني المحسوس إلى المتلقي ، فاكتسبت الكلمة حجاجيتها ؛ لأنّ (عسعس) معناه متداول ومعروف .

والكلام نفسه يقال على (تَنفّس) ، وهو في الأصل فعل إنساني ، ولما أسند حصر المعنى (الخام) ، فحول المعنى من الذهني إلى المحسوس ، ولو استعمل لفظة أخرى مثل : أشرق أو غيرها لما أفاد هذا المعنى ؛ ذلك أن التنفس هو خروج النسيم ، وتنفس الصبح هو التبلج ، والامتداد حتى يصبح نهاراً بيناً ، وقيل إن التنفس هنا بمعنى أقبل ، وجلب معه الروح ، والنسيم ، فجعل له مجازاً ، فقيل تنفس الصبح[٢٤] .

المبحث الثاني

العوامل الحجاجية

معلوم عن العوامل الحجاجية أنها عناصر لغوية تنظمها غاية واحدة ، وهي تحقيق الخطاب بالإقناع واذا وجدت في ملفوظ ما فإنها تحول الإمكان الحجاجي وتوجهه نحو وجهة معينة ، لأنها تحصر هذه الإمكانية وتقيدها ، بما فيه من مزية توجيه الكلام فلا تتحمل بعد ذلك معنى آخر[٢٥] .

فتجعل المتلقي مستعدا لقبول القضية ، وتحقيق النتيجة المرجوة بما تحمله من مكونات داخل الفعل اللغوي ، فهي تعتمد مفهوم الاقتضاء ، فهي توضح هذا المقتضى وتؤكده ، يزاد على أنها تتيح الربط بين أجزاء النص والملفوظات داخل المقطع الواحد[٢٦]، وهذه العوامل هي الآتي :

١ – عاملية النفي :

ورد في ثلاث آيات، قال تعالى :**(وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) [٢٢، ٢٤ ، ٢٥]** ، والمشهور أن النفي جعل موازياً للإثبات لأنه تكذيب له[٢٧] ، فهو أسلوب نقض ، وإنكار يؤتى به لرفع ما يتردد في ذهن المخاطب[٢٨] ، فهو أحد وسائل الإقناع ؛ لأنّ الهدف منه تفنيد الرأي المضاد ، فيسحب منه الرأي ومن ثم يثبت بدلاً منه الرأي المتبنى ، فيبطل ما يعتقده الخصم[٢٩].

وقد ورد النفي في الجزء الأخير من هذه السورة ، فثمة شبهة ألصقت بالرسول الكريم (ص) وبالوحي (ع) بدعوى أن الرسول مجنون وغيرها ، فجاء هذا الأسلوب مؤكدا في ثلاث آيات مما جعل القارئ يتنبه إلى أن دعوى الخصم غير صحيحة بل أخضعت للدحض ، والنقد ، والتشكيك ، يزاد على فتح الثغرات التي استند إليها المشركون مما جعل دعواهم باطلة ، فجيء بهذا الأسلوب ليرد على هذا الكلام.

ومفهوم النفي في الحجاج يستعمل بطريقتين ، الأول شكلي بصدارة العامل (الإثبات) ، والثاني مضموني ويتمثل في حصول المفهوم من النفي[٣٠] ، ذلك أن العامل اللغوي في جملة :

(صَاحِبُكُم مَجْنُونٍ) هي الإثبات أي : إثبات حقيقة يؤمن بها طرف المشركين على حين أن العمل اللغوي في **(مَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ)** هو النفي (نفي الخطاب) الذي جاء ليقيم الحقيقة المشار إليها ومن ثم إثبات خلافها ، فالنفي هنا سجالي غايته التكذيب وهو انكاري ايضا ، وقد جيء بالباء لتؤكد هذا النفي.

٢ – التّوكيد :

يراد به تثبيت المعنى في النفس ، وإزالة اللبس عن الحديث أو المحدث عنه ، فإنك إن أكدت فقد قررت المؤكد ، وما عُلّق في نفس السامع ، ومكنته في قلبه[٣١]. وقد ورد التوكيد بعدة عوامل في السورة الكريمة ، وهي الآتي :

أ – عاملية القسم :

وهو أسلوب من أساليب تأكيد الكلام ، فإن قلت : والله أمسكت أو بالله ، ووقفت لم يكن في الجملة معنى حتى تقسم على أمر من الأمور ، وهذا يعني أنه مرتبط بما بعده فيؤكد الخبر[٣٢] .

وقد ورد في النص الكريم ، قال تعالى : **(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَس)** ، وهي من أكثر حروف القسم استعمالاً [٣٣] .

وهذا القسم قسم الإخبار وغرضه تأكيد الخبر ، وهو نوع من أنواع التوكيد ، ودرجة من درجاته ، ويؤتى به لغرض تواصلي ، وهو دفع المخاطب إلى الوثوق بالكلام[٣٤] .

واضح أنّ تأكيد الملفوظ بالقسم يهدف إلى تقرير الكلام وتمكينه ، وتثبيته ، فاستعمل هذا الأسلوب قبل التوكيد بإنَّ واللام ، لأنّه يكسب قوته من صيغته اللغوية ، فله قوة تداولية تزيل الشك [٣٥].

وما ذكره المحدثون لم يغب عن بال المتقدمين في حينها ، فالمقسم به هو عنصر التوكيد في جملة القسم ، والمقسم عليه يمثل جملة جواب القسم ، وهو ما يراد توكيده[٣٦] .

ولذلك جيء بهذا القسم الذي يؤكد للمتلقي أنّ هذا الكلام كلام رسول كريم ، فوضع القسم في بداية المشهد الثاني من السورة ، لأنّ هناك إنكارا من المشركين ، أولئك الذين شكوا ، وأنكروا قول الوحي المنزل على الرسول ، لأنّك إن أردت الإخبار جئت بالجملة الفعلية ، فإن أكدت فبالأسمية ثم بإنّ واللام على حين أنّ القسم أقوى توكيداً من إن واللام ، وهذا يعني أن وجوده هنا يضاعف التوكيد [٣٧].

فهو يثبت القضية هنا ويوجهها ، لذلك يذكر السيوطيّ أنّ الباري ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها لأنّ العرب تقسم بهذه الأشياء وتعظمها ، ومنها الليل[٣٨] .

ب- عاملية إنّ واللام :

تؤكد (إن) النسبة بين اسمها وخبرها[٣٩] ، وهذا التوكيد يسعى إلى إزالة الشك في هذه النسبة من ذهن المتلقي ، وإنهاء حالة التردد لديه فيما يوجه إليه من كلمات[٤٠] .

ويتمثل في توجيه الكلام ، فكل وسائل التوكيد التي دخلت على القضايا والتي فيها محل نزاع تفيد معنى حققت كذا[٤١]، فالقضية في النص الكريم هي صدق رسالة النبي، قال تعالى : **(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)** [١٩]، وهذه الجملة هي جواب القسم ، وهو ما يراد توكيده ، فجيء بهذا التوكيد بعدها.

وهي جملة يقينية بحتة ، والخبر فيها إنكاري، أي : أنها رسالة صحيحة ولاشك فيها ، فالنبوة التي جاء بها الرسول عن لسان الوحي متحققة جداً ، وبعبارة أخرى هي جملة يقين قطعي .

فمقتضى الجملة يؤكد المنطوق توكيدا مضاعفا ، ويؤخر في لحظة اعتراض السامع على القضية التي يعرضها هذا المنطوق ، فاجتماع إن واللام بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات ، فـ (إن) أفادت التكرير مرتين ، وإذا دخلت عليها اللام صار ثلاثاً[٤٢] .

وقد جاءت هنا بحسب سياق النص ، فالمشهد الثالث من السورة الكريمة قد تركزت فيه المؤكدات ، وهو المرتكز من فحوى السورة ، لأنّ المشهدين ، الأول والثاني، مقدمتان صغرويتان للسورة .

أما المشهد الأخير فهو القضية الكبرى المراد إيصالها فتركزت فيه العوامل الحجاجية ، ومنها التوكيد ، فالآية وصلت في تعبيرها إلى الجزم في الإنكار.

ت- العاملان (إنْ – إلا) مثالاً :

للقصر عدة طرق منها ما وإلا وإن وإلا ، وإنّما ، وسنأخذ القصر بـ (إن وإلا) ، لاشك أنّ دخولهما من شأنها أن تخرجه من الوصف إلى الحجاج ، فيكون العامل الحجاجي المذكور موجهاً لبقية الخطاب نحو نتيجة ما[٤٣] .

ومن ثم يؤتى بهذه العوامل الحجاجية لتثبيت القضية وتوكيد معناها[٤٤] ، فلو قيل : هو ذكر للعالمين مثلاً ، فإنّ الجملة خالية من كل عامل حجاجي ، وبعبارة أخرى هو قائم على الإثبات

المحض ، أي : قائم على وسيلة إبلاغية أو توصيلية في درجة الصفر بالنسبة للخطاب ، وفيه إعلام للمقابل على أنّ هذا الكتاب عظيم الذكر ، وفي الذكر مواصفات متعددة ، نحو إلهي ، من السماء وغيرها على حين أن قوله تعالى : **(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) [٢٧]** أقوى حجاجياً ؛ لأنّ عامل الحصر حدد نتيجة المقصود من الخطاب ، ومن ثم أصبح المخاطب إزاء نتيجة واحدة بما يقتضيه الملفوظ ، أي : إلزام المخاطب بالحجة التي تقوده إلى التسليم بها.

يزاد على أن هناك تخصيصاً جاء ملازماً الحصر ، وهو ذكر للعالمين ، فالجر فيه تخصيص، فالمخاطب الشاك سيتفاجأ بنتيجتين مما يجعله قبالة مواجهة حجاجية ، وهي أنّ الكلام الذي جاء من الوحي ، وتكلم به الرسول (ص) صادر من الله ، وهو ذكر للعالمين.

فهذا القصر أقوى الحجج ، وجاء استعماله هنا ، لأنّ المخاطب ينكر نبوة محمد (ص) ونزول الوحي ، ويشك فيهما ، و(إنْ) أقوى توكيداً من ما ، ولاسيما عند اقترانها بـ (إلا) ، وهذا يزيدها قوة وتأكيداً ، لأنّها تستعمل في الأماكن التي تستدعي قوة في التكذيب والإنكار[٤٥]، فهي تأتي بعد الجمل المنفية مؤكدة لها ، وهي بعد ذلك تقصي مفاهيم أخرى تخطر ببال الخصم من المشركين فتصد المتلقي من الطعن على القرآن وعلى الرسول ، فهي تقود المنكر إلى التسليم بفحوى النص .

ث- العامل إذا :

ورد الشرط في المشهد الأول في مواضع متكررة ، وهي ظرف لما يستقبل من الزمان أو ظرف متضمن معنى الشرط ، فهي أداة شرط غير جازمة* ، لذلك عبر عنها سيبويه أنّها تجيء للوقت المعلوم[٤٦] .

وهذا يعني أنّها لا تدخل في الشرط ، لأنّ الشرط يقوم على العموم والإبهام ، فلا تدل على الوقت المحدد ، وقد جعلت إذا في هذا الحكم ، لأنّها تدل على المستقبل وتتطلب جواباً[٤٧] .

والملاحظ أنّ النص الكريم استعملها من دون أن يستعمل (إن)، فإن تطلب الفعل ، أما (إذا) فليست كذلك ، وإن كان فيها معنى الشرط ، ولذلك وجه الاسم الواقع بعدها على أنّه مبتدأ[٤٨] .

وهذا يعني أنّ مجيء (إذا) هنا هو مقدمة أو عنصر تشويق لما يأتي من كلام ، ومن جهة أخرى تأتي للشيء الواقع لا محالة (وهو ليس فيه قيمة لاشتراط وقوعه) بخلاف (إن) فناسبت الاسم المتقدم بعدها في المشهد الأول ، فالتقديم هنا يفيد الاهتمام والعناية ، فابتدئ بالحدث الأهم ، و بما يحصل في هذه الأشياء ، وهدف هذا التركيب الإقناع ، فهيمن هذا التعبير على المشهد الأول من

السورة، لذلك ناسبت دلالة إذا على ما في الاسم من اهتمام وعناية وثبوت ، لذلك تكررت هنا لما فيها من تشويق لما يأتي في المشهد الثاني ، والثالث .

فثمة تشويقان في هذا المشهد ، الأول جاء بـ (إذا) والثاني جاء بأسلوب التقديم ، فقدم الاسم هنا تشويقاً للسامع ليتمكن في ذهنه .

المبحث الثالث

المتتالية اللسانية والسلّم الحجاجي

أ- المتتالية اللسانية :

يقال في اللغة : تكونه تُؤَاً تبعته، ويقال : تتالت الأمور ، أي : تلا بعضها بعضا ، ومن ذلك قيل ، جاءت الخيل تتالياً ، أي : متتابعة. (٤٩)

ويتضح أنّ في النص الكريم مجموعة من المتتاليات يتبع بعضها بعضا يمكن أن ترصد في النص.

ابتدأت الاولى بقوله تعالى : (**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**) [١]، وانتهت بقوله تعالى ، (**بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**)[٩] .

والملاحظ أنّ النص الكريم ابتدأ بالحجة الاقوى ، فالأقل ، وهكذا ، فترتبت الحجج ترتيبا تنازليا ، لذلك ابتدأ بالشمس ، لأنّها أعظم الآيات الظاهرة ، وأوضحها ، فقدمت على غيرها حتى تكون القيمة الإقناعية أقوى ، لذلك جيء بالحجة الأشد رهبة مما يجعلها أكثر تأثيرا على المتلقي أو الجاحد الذي لا تنفع معه الحجج غير القوية في بداية الخطاب ، فتجعل الحجة الأقوى في بداية النص نقطة ارتكاز أو لمفاجأة المتلقي ، فإذا اهتز شكه صار مستعدا للإذعان لها.(٥٠)

إذ إن المقصود بالسورة هو التهديد بيوم القيامة وبيان أهوال هذا اليوم ، فابتدأت عتبتها بأقوى حجة ، فسميت باسم التكوير.

اما نتيجة هذه المتتالية فهي (**بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**) ، فهي تهيئ ذهن المتلقي لعظمة هذا الذنب وكبره.

وابتدأت الثانية بقوله تعالى: (**وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**)[١٠] ، وانتهت بقوله تعالى : (**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ**)[١٤] ليدل – سبحانه وتعالى– على الأمر العظيم الذي ستنشر فيه أعمال العباد ، فابتدأت بحجة وانتهت بنتيجة.

وجاءت الثالثة متصدرة بقوله تعالى:(**فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ**)[١٥] وانتهت بنتيجة (**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**) [١٩] ، وهذه النتيجة جاءت هادئة تتبعها بعض الآيات التي تؤدي الغرض نفسه ، أي : رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين .

وجاءت الرابعة متصدرة بعامل حجاجي ، (**وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ**) ، ففيها دفاع عن النبي ، وقد انتهت بنتيجة (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**) .

ب – السلّم الحجاجي

يعرف على أنّه علاقة تراتبية للحجج المتتابعة أو هو تدافع الحجج وتراتبها بحسب قوتها فتثبت الحجة التي تفرض نفسها على أنّها أقوى الحجج في السياق لذلك يرتب المرسل الحجج التي يرى أنّها تتمتع بالقوة اللازمة التي تدعم دعواه ، وهذه العلاقات الترتيبية متدرجة ، فهي تقتضي تلازماً بين القول أو الحجة ، والنتيجة المترتبة عليه ، وهذا الترتيب ينتهي إلى فئة دلالية محددة .

وهناك قانونان يحكمان السلّم الحجاجي ، أحدهما أنّ كل قول يرد في درجة ما من درجات السلم يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه ، فـ (ب) أقوى حجاجياً من (أ) .

والثاني إن كان القول (أ) يؤدي إلى النتيجة (ن) فإنّ ذلك يعني بالضرورة أنّ (ب) الذي يعلوه في السلم الحجاجي يؤدي إليهما[٥١] .

وما يهم البحث هنا قانون القلب ، وهذا القانون يظهر عبر خاصية التّعارض ، فالأقوال الواردة في هرم السلم الحجاجي المستند إلى حجج تراتبية بعضها أقوى من بعض ، فيعارض هذه الحجج الأخيرة ، وإن كانت أقوى مما سبقه إلا أنه يكون الأشد ، والأبرز في الإقناع والتأثير ، وفي تحقيق النتيجة الحاسمة[٥٢].

وقد ورد في السلم الحجاجي في الآيات القرآنية الآتية ، قال تعالى : (**وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**) **[٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٧]**

ويمكن أن نوضح ذلك بما يأتي :

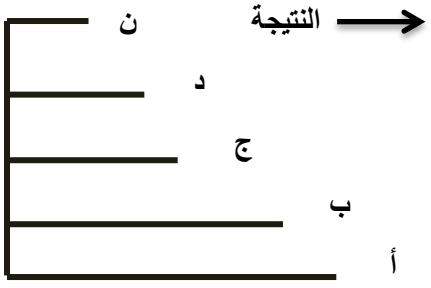

فكل حجة أقوى من سابقتها ، وكل الآيات خبرها إنكاري حتى نصل إلى الهدف المنشود ، فالسلّم مبني على التدرج في الحجج ، فيصل بعدها إلى النتيجة المرجوة ، فالخطاب موجه لأهل مكة ، وبداية هذه الآيات إنّما هي جواب القسم في النّص المذكور ، والحجة الأولى أقل قوة من الحجة الثانية ، والثانية أقل من الثالثة ، والثالثة أقل من الرابعة ، وفي الرابعة غلق الباري النقاش ، فأخرت في النهاية ، والنتيجة أنّه مرسل من السماء ، فالترتيب جاء تصاعدياً بحسب القوة والضعف ، فاستعمل القرآن مجموعة من الحجج المتدرجة وصولاً إلى الأقوى، وهدفه في ذلك ترسيخ هذه الدعوى المذكورة في هذا المشهد في نفس التلقي ، وبذلك يصعب دحضها .

حصيلة البحث

١- اتضح أنّ في النص الكريم كلمات قد استعملها القران جاءت لتؤدي غايات حجاجية ، ومنها ما جاء بالاستعارة المكنية ، والهدف من ذلك تقريب الذهني المعقول الى الحسي ، فأراد القرآن أن يقربها ألى المتلقي بوساطة هذه الاستعارة ، فأعطيت لازما من لوازم المجد، وهذا يعد نمطا من أنماط الاقناع، والإفهام لما فيه من التكثيف.

٢- تركزت العوامل الحجاجية في المشهد الأخير من السورة الكريمة ، فهذا المشهد ينقل ما فعله المشركون اتجاه دعوة النبي (ص) والوحي (ع) ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك جملة القصر بـ (إنْ و إلا) التي جعلت المقابل إزاء نتيجة واحدة بما يقتضيه الملفوظ ، فكانت هذه الجملة أقوى جمل النفي، إذ أغلقت جدال المشركين بهذه الجملة ، ولتشير إلى عالمية هذه الدعوة ، يزاد على أنّ هذه الجملة كانت أقوى الحجج المذكورة في النص، فالباري دافع عن القرآن، والرسول ، فالقرآن ليس بقول شيطان رجيم، والرسول ليس بمجنون، فهذه الحجة دفعت تهتمين كبيرتين أتيتا من المشركين في ذلك الوقت، لذلك استعملت معهما (إن) النافية و(إلا).

٣- تبين أن ثمة مجموعة من المتتاليات قد وردت في النص الكريم تعقبها نتيجة في النهاية ، ويلحظ أنّ الآيات من بداية النص وانتهاء بالآية الرابعة عشرة تبتدئ بحجج مرتبة بحسب القوة من الأقوى حجة إلى الأقل حجة ، ويتوسط هذه الحجج عامل حجاجي ، وهو (بأي ذنب قتلت) ، فالعامل الحجاجي وسيط بين الحجة والنتيجة، وغيرها من النتائج.

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن ، السيوطيّ (ت ٩١١ هـ) ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ط١ ، مصر ، ١٩٧٤م .
- استراتيجيات تدريس التواصل باللغة : يوسف تغراوي ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، ط٢،الاردن ،٢٠١٥م.
- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية : عبد الهادي الشهري ، دار الكتاب الجديد ، ط١، بيروت ، ٢٠٠٤م.
- الأصول في النحو ، ابن السراج (ت ٣١٦ هـ) ، تح : د. عبد الحسين الفتليّ ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م .
- الإيضاح ، أبو علي الفارسيّ (ت ٣٧٧ هـ) ، تح : د. كاظم بحر المرجان ، عالم الكتب ، ط١، بيروت ، ٢٠٠٨ م
- البرهان في علوم القرآن ، الزركشيّ (ت ٧٩٤ هـ) ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، ط١ ، القاهرة ، د . ت .
- البعد التداولي والحجاج في الخطاب القرآني الموجه الي بني اسرائيل :قدري عمران ، عالم الكتب الحديث ، ط١ ، الاردن ، ٢٠١٢م.
- البيان والتبيين ، الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تح : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، د.ت ، بيروت.
- التداولية عند علماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللسان العربي ، د. مسعود صحراوي ، دار الطليعة ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٥م .
- التفسير البسيط ، الواحديّ (ت ٤٦٨ هـ) ، تح : نوره بنت عبد الله الونّان ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، ط١ ، السعودية ، ١٤٣٠ هـ .
- تهذيب اللغة ، الأزهريّ (ت ٣٧٠ هـ) ، تح : علي حسن هلالي ، مطابع سجل العرب ، مصر ، د . ت .
- المحسن تركي ورفيقيه ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٦م .
- جمهرة اللغة ، ابن دريد (ت ٣٢١ هـ) ، تح : د. رمزي منير بعلبكيّ ، دار العلم للملايين ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م .
- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ، د. سامية الدريديّ ، عالم الكتب الحديث، ط١ ، الأردن ، ٢٠٠٧م .
- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، عبد الله صولة ، دار الفارابيّ ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠١م .
- الحجاج مفهومه ومجالاته دراسة نظرة وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، ٢٠١٠م.
- الخطاب والحجاج ، أبو بكر العزاويّ ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠١م .
- زاد المسير في علم التفسير : ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، المكتب الاسلامي ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٤م.
- شرح جمل الزجاجيّ ، ابن عصفور (ت ٦٦٩ هـ) ، تح : د. صاحب أبو جناح ، عالم الكتب ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م .
- سياق الحال في كتاب سيبويه ، دراسة في النحو والدلالة ، د. اسعد خلف ، دار الحامد ، ط١ ، الاردن ، ٢٠١١م.
- شرح المفصل ، ابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ) ، تح : د. إبراهيم عبد الله ، دار سعد الدين ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠١٣م .
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، د. محمود السعران ، دار المعارف ، ط١ ، مصر ، ١٩٦٢ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، القيرواني (ت) تح : محمد قرقزان ، دار المعرفة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٨م.

- العوامل الحجاجية في اللغة العربية ، د. عز الدين الناجح ، مكتبة علاء الدين ، ط١ ، صفاقس ، تونس ، ٢٠١١م
- العين (كتاب) ، الفراهيديّ (ت ١٧٥ هـ) ، تح : د. إبراهيم السامرائيّ ورفيقه ، مطبعة الكويت ، د . ط ، الكويت ، ١٩٨٠م .
- في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزوميّ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٥م .
- في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، د. عبد الله صولة ، دار الجنوب للنشر والتوزيع ، ط١ ، تونس ، ٢٠١١م .
- القاموس المحيط ، مجد الدين الفيروز آباديّ (ت ٨١٧ هـ) ، الهيأة المصرية للكتاب ، د . ط ، مصر ، ١٩٧٨م .
- كتاب سيبويه ، سيبويه (ت ١٨٠ هـ) ، تح : عبد السلام هارون ، ط٣ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٣م .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، الزمخشريّ (ت ٥٣٨ هـ) ، تح : عادل أحمد عبد الموجود ورفيقه ، مكتبة العبيكان ، ط١ ، الرياض ، ١٩٩٨م .
- اللباب في علل البناء والإعراب ، العكبريّ (ت ٦١٦ هـ) ، تح : غازي طليمات ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق ، ١٩٩٥م .
- اللسان والميزان (التكوثر العقلي) ، طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط١ ، المغرب ، ١٩٩٨م.
- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني (ت ٣٩٢ هـ)، تح : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٨م .
- مدخل الى اللسانيات : رونالد الوار ، ترجمة بدر الدين قاسم ، مطبعة جامعة دمشق ، سوريا ، ١٩٨٤م.
- المصباح في المعاني والبيان والبديع ، بدر الدين بن مالك (ت هـ) تح : د. حسني عبد الجليل ، مكتبة الآداب ، مصر ، د.ت.
- معاني القرآن ، الفراء (ت ٢٠٧ هـ) ، تح : د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ ، مصر ، ١٩٨١م .
- معاني النحو ، د. فاضل السامرائيّ ، دار الفكر ، ط٢ ، عمّان ، ٢٠٠٣م .
- المفصل في صنعة الإعراب ، الزمخشريّ ، تح : د. خالد إسماعيل حسان ، مكتبة الآداب ، ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٩م .
- المقتصد في شرح الايضاح : الجرجاني ، (ت ٤٧١هـ)، تح : د. كاظم بحر المرجان ، دار الرشيد للنشر ، ط١ ، العراق ، ١٩٨٢م.
- مقاييس اللغة (معجم) ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) ، تح : عبد السلام هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١، بيروت ، ١٩٧٩ .
- المقتضب ، المبرد (ت ٢٨٥ هـ) ، تح : محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب، ط١ ، بيروت ، د . ت .
- مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التأريخ إلى الحجاج ، د. حسن مسكين ، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠١٠م .
- نقد الشعر : اسامة بن منقذ (ت هـ) تح : احمد احمد بدوي ورفيقه ، مطبعة البابي الحلبي ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

- الهداية إلى بلوغ النهاية ، مكي القيسيّ (ت ٤٣٧ هـ) ، حققه مجموعة من الباحثين ، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي ، جامعة الشارقة ، ط١ ، الأمارات، ٢٠٠٨م .

المجلات :

- في خطابة ارسطو الباتوسية : محمد الولي ، مجلة علامات ، ع : ٢٦ ،المغرب ، ٢٠٠٦م.
- مفهوم الحجاج عند بيرلمان : محمد سالم ولد الامين ، عالم الفكر ، مج : ٢٨ ، الكويت ، ٢٠٠٠م.

الهوامش:

(١) ينظر : التواصل بين الاقناع والتطويع ، د. محمد الداهي : ٢٦١.

(٢) راجع ما ذكره العوادي في سياق الحال : ٦٩-٧٠.

(٣) ينظر : في خطابة ارسطو الباتوسية : ٤٨.

(٤) ذكرت مثالين على سبيل المثال لا الحصر ، : ٢/ ٢٠٨و ٢/ ٢٣٢.

(٥) راجع ما قيل في البيان والتبيين :١/ ١٣٨ و ١/١٤٤.

(٦) صرح بذلك القيرواني في العمدة : ١/٣٦٤ -٣٦٥.

(٧) ينظر : مدخل الى اللسانيات : ٤٧.

(٨) عن هذا الكلام اقرا ما جاء في استراتيجيات تدريس التواصل : ٢٢.

(٩) ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي : ٣٣٩.

(١٠) ينظر : مفهوم الحجاج عند بيرلمان : ٣٤.

(١١) ينظر : في نظرية الحجاج : ٨٩ – ٩٠ .

(١٢) عند هذا الكلام لاحظ ما ذكره صاحب النقد الشعر : ٥٦.

(١٣) هذا ما ذكره الخليل في العين : ٥/ ٤٠٢ .

(١٤) ينظر : التفسير البسيط ، الواحدي : ٢٣/ ٢٤٥ .

(١٥) ينظر : الكشاف ، الزمخشريّ : ٦/ ٣٢٠ .

(١٦) القاموس المحيط : ٢/ ٤٩٨ .

(١٧) ينظر : مقاييس اللغة : ٥/ ١٦٤ .

(١٨) ينظر : تهذيب اللغة : ١٠/ ٥٧٥ – ٥٧٦ .

(١٩) ينظر : الجمهرة : ١/ ٨٢٠ .

(٢٠) ينظر : اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن : ٣٠٤ .

(٢١) ينظر : المصباح في المعاني والبيان والبديع ، ابن الناظم : ١٣٢ .

(٢٢) راجع ما ذكره مكي القيسيّ في الهداية : ١٢/ ٨٠٨٥ .

(٢٣) هذا ما ذكره الفراء في معانيه : ٣/ ٢٤٢ .

(٢٤) ينظر : زاد المسير : ٩/ ٤٣ .

[٢٥] ينظر : البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، قدري عمران : ٣٦.
[٢٦] الخطاب والحجاج ، العزاويّ : ٥٦ .
[٢٧] راجع ما ذكره ابن يعيش في شرح المفصل : ٨/ ١٩٥ .
[٢٨] ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه ، المخزوميّ : ٢١٥ .
[٢٩] راجع ما ذكره قادا في الخطاب السياسي : ٢٧٨ .
[٣٠] انظر : ما ذكره عز الدين الناجح في العوامل الحجاجية : ٤٧ .
[٣١] ينظر : المفصل ، الزمخشريّ : ٢٥٦ .
[٣٢] الإيضاح ، الفارسيّ : ٢٠٨ .
[٣٣] ينظر : كتاب سيبويه : ٣/ ٤٩٦ .
[٣٤] ينظر : التداولية عند علماء العرب ، صحراوي : ٢١٠ .
[٣٥] هذا ما ذكره قادا ، راجع كتابه: ٢٩٢ .
[٣٦] المقتصد في شرح الإيضاح ، الجرجانيّ : ٢/ ٨٦٥ .
[٣٧] ينظر البرهان : ٢٤١/٢
[٣٨] راجع الإتقان : ٤/ ٥٣ – ٥٤ .
[٣٩] ينظر : شرح التصريح على التوضيح ، الأزهريّ : ٢/ ٤٩ .
[٤٠] ينظر : الحجاج في الخطاب السياسي : ٢٨٩ .
[٤١] راجع الحجاج في القرآن : ٣١٧ .
[٤٢] وهو ما ذكره العكبريّ في اللباب : ١/ ٢٠٥ .
[٤٣] ينظر : العوامل : ٦٢ .
[٤٤] ينظر : المحتسب ، ابن جني : ٢/ ١٥٨ – ١٥٩ .
[٤٥] ينظر معاني النحو : ٤/١٧٠-١٧٢ .
* عدها المبرد من أدوات الشرط ، ينظر : ٣/ ١٧٧ .
[٤٦] ينظر : كتاب سيبويه : ٣/ ٦٠ – ٦١ .
[٤٧] نفسه .
[٤٨] ينظر : نفسه : ١/ ٨٢ .
[٤٩] ينظر : لسان العرب ، ابن منظور ،
[٥٠] ينظر الحجاج ف الخطاب السياسي : ٣٧٣ .
[٥١] ينظر : الحجاج في الشعر العربي ، سامية الدريديّ : ٢٥٥ .
[٥٢] لاحظ ما قاله به د. حسن مسكين في مناهج الدراسات الأدبية الحديثة : ١٦٦ .